الفصل الثالث.

فى العبادات

obeikandl.com

obeikandl.com

١ ــ قضـــية الاجتهـــاد

(أ) تتجدد الأحداث وتتشعب فى المجتمعات الانسانية بصورة مستمرة ، فهى لا تتوقف : وليس هناك ما يمنع من ظهور الجديد دائما على مسرح الحياة ، كذلك تتنوع صور الحياة من اقليم لاقليم ، فلا يوجد تطابق كلى فى أسلوب الحياة على وجـــه الكرة الأرضية ، على اختلاف قاراتها ومناطقها وأقطارها ، فدائما يجد الباحث فى كل اقليم أشـــياء لا يجدها فى الآخر ، وتقابله صـــور شتى من المعاملات ، واتجاهات متعددة فى أسلوب العلاقات التى تحكم المجتمعات الانسانية •

ومن هنا فلا يوجد نظام على وجـــه الأرض ، ــ ولن يوجد ــ يستطيع أن يسجل فى قوانينه ولوائحه التى تنظم الحيـــاة ، وتحكم العلاقات الانسانية ، بنودا ومواد تشمل كل ما على وجـــه الأرض من نشـــاط انسانى ، على اختلاف أنواعه ومناحيه ، ولذا فمن المسلم به أن الدساتير دائمة التغيير والتبديل ، والقوانين ليست ثابتة ، اذ تعمل فيها عقول المشرعين بالحذف والتجديد ، ليستطيع المجتمع أن يواجه المتغيرات بما يوافقها ، ويســـد الثغرات التى تظهرها تجدد الأحداث واختلاف العصور والبيئات ، حتى لا تصاب الأنظمة بالجمود ، ولا تنتشر الفوضى والتسيب فى مجال الحياة الاجتماعية ، أو تنتهك العدالة ، فيفترس القوى الضعيف ، عن طريق ثغرات الضعف فى اللوائح والقوانين •

ولم تسلم الشرائع الســـماوية من هـــذا الجانب ، اذ ليس هناك شريعة حوت كل ما يمكن أن يحدث على وجـــه الأرض ، بل ان من المعروف أن الوحى يأتى بالخطوط العريضة والمبادىء العـــامة ، والقواعد التى تصلح بوجه عام لكل المجتمعات الانســـانية ، ويمكن أن تطبق فى كل الأقطار ، على اختلاف أساليب حياتها ونظمها المعيشية ، ثم ترك لفقهائها تنظيم الفروع ، التى لا تمس الجوهر ، حسب طبيعة كل اقليم ، واخضاع ما يجد من أحداث لبنود ولوائح ، تتفق فى اتجاهها وتطبيقها مع روح التشريع العام للدين •

وهـــذا ما يسمى فى مجال التشريع الاسلامى بالاجتهاد ، فهو أمر ضرورى ، حتمته ظروف الحيـــاة الانسانية ، وطبيعة اختلاف أساليب الحيـــاة فى المجتمعات البشرية ، وضرورة تجدد الأحداث على اختلاف العصور والأزمان ، واستحالة تسجيل أحكام جميع الأحداث التى تتجدد كل يوم فى الوحى السماوى ، بطريقة شاملة لكل ما سيحدث على وجه البسيطة ، وعليـــه فقد أباح الاسلام للمسلمين ، أن يجتهدوا فى استنباط الأحكام لمـــا يحدث من القرآن والسنة ، فان لم يجدوا فيهما ما يناسب الحدث ، بحثوا عن مثيل له ، والا استحدثوا له حكما جديدا ، بحيث يتفق مع روح التشريع الاسلامى •

ومن هـــذا يتبين أن الاجتهاد ســـبيل حتمى لتعرف أحكام ما لم يسبق له مثيل من الحوادث ، وأنه ضرورى لكمال الشريعة ، وشمولها ، ووفائها بحاجات الناس ، وما يأتى به تطورهم ، وما تنتهى اليه أعرافهم •

وهـــذا الاجتهاد محـــكوم بضوابط ، تحـــكم اتجاهه على طريق يؤدى الى تطبيق أحـــكام الله ، وعـــدم الخروج عن تشريع الوحى ، فلا اجتهاد مع النص ، وانما ينحصر عمل الفقيه فى استنباط الحكم منه ، كذلك لا اجتهاد فى حادثة سبق الحـــكم فيها من رسول الله ﷺ ، فان لم يكن هناك نص ، ولم يسبق الحكم فى مثل هـــذه الحادثة ، استعمل الفقيه القياس ، أى يطبق حكم ما يماثلها ، وان لم يوجد شىء من هـــذا كله ، اجتهد فى استخراج حكم يتفق مع روح التشريع الاسلامى •

فالاجتهاد مصدر من مصادر التشريع ، أو هو أسلوب أحله الاسلام للوصول الى حكم الشرع فيما يجد من أحداث ، وقد باشره النبـــى ﷺ ، غير أن الوحى كان يصحح له اجتهاده ، لو خرج عما يريده الله ، يشهد بذلك قوله تعالى : « **يا أيها النبى لم تحرم ما أحل الله لك ، تبتغى مرضات أزواجك ، والله غفور رحيم** »[1] ••

فقد حرم شيئا بطريق الاجتهاد فنزل الوحى مبينا أن ذلك لم يكن صـــوابا •

---

(١) التحريم : ١ •

وقد روى البخارى عن ابن عباس رضى الله عنه أن امرأة من جهينة ، جاءت الى النبى صلى الله عليـــه وسلم ، فقالت : ان أمى نذرت أن تحج ، ولم تحج حتى ماتت .. أأحج عنها ؟ قال : « نعم .. حجى عنها ، أرأيت لو كان على أمك دين أكنت قاضيته ؟ اقضوا الله ، فالله أحق بالوفاء » ، فهذا الجواب من رسول الله ﷺ قياس ، اذ قاس الحج على الدين فى الوفاء ، والقياس اجتهاد .

وكذلك ما رواه أحمد بسنده الى عبد الله بن عمر ، فيما يتعلق بأسرى بدر ، عندما استشار أصحابه فى أمرهم ، اذ أشار عليه أبو بكر باستبقائهم ، وقبول الفداء منهم ، لعل الله أن يتوب عليهم ، وأشار عمر بضرب أعناقهم ، فمال الى رأى أبى بكر وقبل الفداء وأطلقهم ، فعاتبه الله على ذلك بآية فى القرآن الكريم ، وهى قوله تعالى : **« ما كان لنبى أن يكون له أسرى حتى يثخن فى الأرض ، تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة ، والله عزيز حكيم . لولا كتاب من الله سبق لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم »**[٢] ..

فكان قبول الفداء منهم اجتهادا منه ﷺ ، ولم يكن وحيا بدليل أن الله عاتبه عليـــه .

وكذلك ما كان منه ﷺ من اذن لمن استأذنه فى التخلف فى غزوة تبوك لأعذار انتحلوها ، فقد كان اجتهادا منه عاتبه الله عليه ، بقوله : **« عفـــا الله عنـــك لمن أذنت لهم حتى يتبين لك الذين صـــدقوا وتعلم الكاذبين »**[٣] ..

وغير ذلك كثير دونته كتب السنة ، وأصبحت اجتهاداته ﷺ بعد اقرارها من الوحى سنة يجب اتباعها ، ولا يجوز معها اجتهاد . وليس لأحد أن يعترض بأن هـــذه الاجتهادات من رســـول الله ﷺ ســـنة واجبة الاتباع فخرجت عن دائرة الاجتهاد ، لأن ابتداءها كان اجتهادا للتشريع ، أى لتعليم المسمين أن طريق الاجتهاد ، عندما لا يكون هناك نص ، أسلوب أحله الاسلام ، للوصول الى حكم ما يستجد من أحداث .

* * *

(٢) الأنفال : ٦٧ ، ٦٨ . (٣) التوبة : ٤٣ .

(ب) كان عمل رسول الله ﷺ منهاجا لأصحابه ، يقتدون به فيهتدوا الى ما أراده الله لهم ، وكان سلوكه فى استنباط الأحكام تشريعا لهم ليفعلوا مثله من بعده عندما يواجهون أحداثا جديدة ، بل انه دفعهم الى الاجتهاد ، واستنباط الأحكام فى حياته ، بل وفى حضوره ، ليدربهم على هذا العمل الذى فيه حياة المجتمعات وتجددها ، فقد روى الامام أحمد بسند صحيح ، فقال : « جاء خصمان الى رسول الله ﷺ يختصمان ، فقال رسول الله ﷺ : قم ياعقبة فاقض بينهما ، فقلت : بأبى أنت وأمى يارسول الله ، أنت أولى بذلك ، قال : وان كان •• اقض بينهما ، فقلت : على ماذا ؟ قال : اجتهد ، فان أحسنت ، فلك عشر حسنات ، وان اجتهدت فأخطأت فلك أجر واحد » •

وقد سأل رسول الله ﷺ معاذا ، حين بعثه الى اليمن قاضيا ، فقال له : « كيف تقضى اذا عرض لك قضاء ؟ قال : أقضى بكتاب الله • قال : فان لم تجد فى كتاب الله ؟ قال : أقضى بسنة رسول الله ، قال : فان لم تجد فى سنة رسول الله ؟ قال : أجتهد رأيى ، ولا آلو • فضرب رسول الله ﷺ على صدره وقال : الحمد لله الذى وفق رسول رسول الله — ﷺ — الى ما يرضى الله ورسوله » •

فقد أرضى معاذ رسول الله ﷺ حين قال له انه يجتهد فيما يعرض عليه ، مما ليس فيه كتاب ولا سنة ، وهذا دليل على أن الاجتهاد وسيلة من وسائل استنباط الأحكام فى الشريعة الاسلامية ، وقد فهم الصحابة ذلك ، فمارسوه ، وطبقوه فيما عرض عليهم من أحكام حديثة ، وفيما قابلهم من ظروف لم تكن فى عهد رسول الله ﷺ •

فقد كانت ممارستهم الاجتهاد فى عهد رسول الله ﷺ ، وشهودهم قضاءه فى أقضيته ، واجتهاده فى فتاويه ، ومشاركة بعضهم بعضا فى ذلك ورجوعهم الى النبى ﷺ فيما نظروا فيه ، واهتداؤهم بهديه فى ذلك ، قد هيأ لهم ما صاروا اليه من الأهلية والقدوة ، والأسوة ، والمتابعة فيما يفتون به من الأحكام الشرعية فى المسائل النازلة ، والوقائع المستجدة ، مما يرونه حكما لله تعالى ، دل عليه كتاب ، أو هدت اليه

سنة ، أو جرى فيه قضاء ، أو هدى اليه أصل عام من أصول التشريع ، أو أفاده حكم مشـــابه فى واقعة مماثلة ، أو اقتضته مصـــلحة عامة ، أو استوجبه دفع ضرر ، وذلك بعد المشورة والنظر •

واستمر الاجتهاد مبدأ من مبادىء البحث عن الأحكام فى عصر التابعين وتابعيهم ، الا أن تدوين الحديث وتدوين كثير من فتاوى الصحابة وآرائهم ، وازدهار لفقه فى ســائر الأمصار بكثرة المشتغلين به من الموالى ، وظهور الأحزاب السياسية ، وانتشار دعوتها ، كان له أثر فى تشعب الاتجاهات فى الاجتهاد والتشريع ، كما كان لتعدد النزعات التى تتمثل فى متابعة أهل كل مصر ، لمن أدركوهم من التابعين ، أثر فى اتباع كل بلد مذهب من اشتهر فيه من الفقهاء فتكونت المدارس الفقهية •

ولم يختلف الاجتهاد بين أتباع هـــذه المدارس ، بل ظل يمارسه النابهون فى هذه المدارس ، فلم يقلدوا فى أصول ولا فروع ، وانما كان لهم آراؤهم التى خالفوا فيها مؤسس المذهب ، الى أن جاء القـــرن الثالث ، فمال كثير منهم الى تقليد غيره ممن ســـبقه من المجتهدين ، الا أنه كان لهم استقلال فى بعض الآراء مع احتفاظهم باتباع مذهب أئمتهم •

الا أن ظاهرة الاجتهاد اختفت فى هذه المدارس فى النصف الثانى من القرن الرابع الهجرى ، فلم يبق مجتهد معترف به ، كما ذكر ذلك النووى ، واذا ما ادعاه أحد أنكروا عليه ذلك ، ونوزع فيه • وبانقراض المجتهدين فى القرن الرابع : وعدم ظهور من يحمل الناس على التسليم برأيه أصبح باب الاجتهاد مغلقا لم يدخله أحـــد ، وشاع بسبب ذلك أن باب الاجتهاد قد أغلق ، وليس لأحد أن يلجه •

وكان هذا الرأى محل نزاع ، فيما تلا ذلك من الزمن ، بين جمهور المحققين من المتقـــدمين والمتأخرين ، الذين ذهب كثـــير منهم الى أن دعوى غلق باب الاجتهاد بـطلة ، فالاجتهاد فرض على من يستطيعه ، وواجب على الأمة ممارسته ، حتى تواجه التطور المستمر فى الأحداث

والحالات التى تحتاج الى أحكام • ولكن جاء بعـد هؤلاء طائفة من الفقهاء ، عكفوا على جمع فتاوى من سبقهم ، واختيار ما يرونه ملائمـا للحدث المفروض عليهم •

واستمر الحال على ذلك ، حتى ظهر بمصر فى القرن السـابع الهجرى ، العز بن عبد السلام ، وتلميذه تقى الدين بن دقيق العيد ، فأظهرا نزعة الى الاجتهاد والاستدلال ، ولكنهما لم يصلا الى مسـتوى الاجتهاد المطلق المستقل ، وفى هـذه الحقبة أيضا ، ظهر فى الشـام ابن تيمية ، وتلميـذه ابن قيم الجوزية ، فحاربا التقاليد ودعوا الى الاستمساك بالسنة والرجوع اليها ، ومقاومة البدع ، ولكن كانت دعوتهما أشد مساسا بأصول الدين منها بالفقه والفروع •

ومنذ ذلك الحين ، تأرجحت فريضة الاجتهاد بين الرفض والقبول ، الا أن السمة الغالبة على مدارس الفقه ، ومجالس التدريس فى المجتمعات الاسلامية ، ومحاورات العلماء فى العالم الاسلامى ، كانت سمة التقليد ، حتى أصبح الاجتهاد أمرا منكرا وصار من يحاول التجديد فى مجـال التشريع ، على أساس الاجتهاد فى المسائل التى لم يرد فيها حكم واضح فى الكتاب والسنة منبوذا من مجالس العلماء ، ومغضـوبا عليه من الجماهير ، من جراء تشويش العلماء عليه ، وتقبيح محاولاته فى هذا المجال لدى العلماء ، والعامة والخاصة ، حتى وصل الأمر بهم أحيانا الى اتهامه فى دينه وعقيدته •

غير أن أحداث العصر الحديث قد تكاثرت ، وصار المسلم فى كل مكان ، يستفسر عن رأى الدين فى هذه الأحداث ، التى تظهر كل يوم فى جميع مجالات الحياة اليومية مما اضطر كثير من العلماء الى طرح قضية الاجتهاد من جديد على مائدة البحث ، فاقتنع جمهورهم بعد بحث طويل الى ضرورة الاجتهاد ، للوصول الى أحكام لهذا الكم الكبير من الأحداث حتى يطمئن المسلم على دينه وعقيدته فيما يباشر من أعمال يومية •

وهكذا •• عادت قضية الاجتهاد تأخذ وضعها على مائدة الفقهاء ،

وعليهم أن يقوموا بواجبهم فى هذا المجال حتى تسود روح التشريع الاسلامى فى جميع أنشطة الحياة المختلفة •

* * *

(ج) تغيرت أساليب الحياة اليوم فى المجتمعات الانسانية ، وانقلبت انقلابا كليا ، بحيث أصبحت بعيدة الشبه عما كان عليه حالها فى عصور الاسلام الأولى . وبالتالى أصبحت المسائل الاقتصادية ، والسياسية ، والاجتماعية ، تختلف فى كثير من جوانبها عما كانت عليه فى العصور الماضية ، اذ ظهرت صور من المعاملات ، وأنواع من السلوك ، ونماذج من العلاقات الاجتماعية ، لم تدون فى كتب السالفين ، فلم تعرف لها أحكام ، ولم تستقر فى نفوس الناس من الوجهة الدينية •

فبعض الناس اعتبر أن ما يحدث فى الحياة ، ولم يكن له حكم فى كتاب من كتب السالفين ، فهو بدعة يجب اجتنابها ، لأن من يباشره فقد ضل عن سبيل الله ، وخسر بذلك آخرته ، والبعض الآخر دفعته الحاجة الى التعامل بصورة أو بأخرى مع هذا الجديد ، الذى ظهر دون أن يسأل عن جوانب الشر والخير فيه ، أو يغمض عينيه اذا ما بدا له أن ذلك مخالف للدين ، بناء على فتوى سمعها ممن تصدروا للفتوى فى هذه المسائل دون أهلية أو صلاحية •

كما أبهم الأمر على كثير من المسلمين ، فوقعوا فى حيرة لا يدرون ما يأخذون وما يتركون ، مما جعل حياتهم فى صورتها وفى وضعها حياة غير مستقرة ، فافتقدت حوافز العمل والجد ، وسيطر عليها السلبية والانعزالية •

وكان سبب ذلك كله الاعتقاد الخاطىء بأن باب الاجتهاد قد أغلق ، والحقيقة أن باب الاجتهاد لازم للمجتمعات لزوم الطعام والشراب ، ذلك أن الأحداث المتجددة تستلزم وجوده ، والا وقفت عجلة الحياة ، وأعيق تيار التقدم عن التدفق ، فتصاب الأمة بالعجز والشلل ، وقد حث الرسول ﷺ عليه ، ودفع أصحابه الى ممارسته بل وأعرب عن سروره عندما أجابه معاذ بأنه سيجتهد ، اذا لم يجد الحكم فى كتاب الله وسنة رسوله •

ولم يكن هذا من رسول الله ﷺ سوى تشريع للأمة ، وتوجيه لهـا بألا تترك الاجتهاد ، وألا تصاب بالشـلل أمام تيار الأحداث المتدفق ، وتعجز عن مسايرة ركب التقدم فى مجالات الحياة المختلفة ، وما حدث للأمة الاسلامية فى العصور المـاضية ، من عجز وتخلف ، لشاهد على أن المسلمين قد ارتكبوا خطأ فادحـا عندما أهملوا أمـرا حثهم عليه رسول الله ﷺ ، وهو الاجتهاد .

فاذا كان الاجتهاد سنة من سنن رسول الله ﷺ التى حث عليها ، وضرورة لازمة للمجتمعات الانسانية ، فهو فى هذا العصر من أكثر الأمور التى تفرض نفسها على حياة المسـلمين ، كى تقوم الحياة على أسس قويمة ، فيهـا مواءمة بين شريعة الله ، وبين متطلبات الحيـاة الحاضرة ، بما يكفل لها استقامتها وسلامتها ، بتوجيهها على وفق ما شرعه الله من أحكام على طريقة ينفى عنها خبث الباطل ، ويقيها رجس الشيطان ووخامة الظلم والاستبداد .

ولا يقتصر الاجتهاد على بعض جوانب الحياة ، دون البعض الآخر ، بل هو من الوجهة الاسلامية ينبغى أن يطبق فى جميع مجالات الحياة ، وليس صحيحا ما يقال من أن هنـاك جوانب لا دخل للشرع فيهـا كالأمور التنظيمية مثلا ، لأن الشرع لا يتدخل فيها بفرض نظام معـين ، أو أسلوب خاص ، وانما يتدخل فيها ليحفظ الحقوق لأصحابها فلا يضار أحد ، ولا تنتهك حرماته ، ولا تسلب الحقوق من أصحابها ، فتدخل الاجتهاد الشرعى فى الأمور التنظيمية انما هو لتطبيق قاعدة « لا ضرر ولا ضرار فى الاسلام » .. أما الهيكل التنظيمى ، والأشكال المتعددة فى مجاله ، فالدولة ، والمؤسسات ، والهيئات حرة فى أن تتخذ الشكل الملائم لها ، بشرط عدم المساس بالحقوق ، وبشرط ألا يترتب على نظام ما تعطيل مبدأ من مبادىء الاسلام ، أو ارتكاب شىء حرمه القرآن الكريم .

ومن هذا يتبين أن الاجتهاد لازم لكل المجتمعات الانسانية ، وضرورة من ضرورات الحيـاة ، ويجب على المسلمين أن يمارسوه والا كانوا مذنبين فى حق رسول الله ﷺ لأنه حثهم عليه ، وفى حق أمتهم لأنهم

بتقاعسهم عنه يسهمون بطريق غيرمباشر فى تخلفها عن ركب الحضارة ، فان قام به مجموعة من فقهائهم ، فقد سقط التكليف عن الباقين ، وليس لأحد أن يدعى الاجتهاد الا اذا كانت لديه القدرة على ذلك ، وقد وضع العلماء لها معالم ، اذا وجدت لدى الشخص ، كان بامكانه استنباط الأحكام .. ومن هـذه المعالم :

١ — العلم بنصوص الكتاب والسنة التى تتعلق بالأحكام .

٢ — العلم بما عليه جمهور الفقهاء من الأحكام ، حتى لا يخالفه .

٣ — العلم بلسان العرب ، بحيث يمكنه فهم ما جاء فى الكتاب والسنة ، على اختلاف أساليبها ، والمطلوب فى ذلك أن تكون له ملكة لغوية تثبت له بطول الممارسة ، وكثرة الملازمة .

٤ — العلم بأصـول الفقه وقواعده ، لأنه عماد الاجتهاد وأساسه الذى يقوم عليه بناؤه .

والمراد من ذلك أن يكون المجتهد على علم بما عرض له الأصوليون ، من أسس وقواعد تهدى المجتهـد الى النظر الصحيح ، والاستنباط السليم ، وتجنبه الخطأ فيهما .

وأضيف الى ذلك أنه يجب أن يكون المجتهد على علم — ولو بصورة اجمالية — بالتيارات الفكرية المعاصرة والمذاهب السياسية ، والاقتصادية العالمية ، والاتجاهات الدينية المختلفة ، والنظم الاجتماعية المتعددة ، والأسس النفسية المتشابكة حتى يأتى استنباطه للأحكام ، وتقييمه للأحداث ذات المصادر المتعددة غير بعيد عن واقع الأحداث ، ولا متنافر مع المسلمات البديهية .

كما أنه ينبغى أن تكون لديه ملكة استنباط الأحكام ، لأن من العلماء من يكون ملما بكل ما تقدم ولا يستطيع استنباط حكم ، أو توجيه قضية تشغل بال المسلمين بما يرضيهم نفسيا ، مع توجيههم فيها الى سلوك طريق يتفق ومبادىء الاسلام ، فهذا عمل لا يقدر عليه الا ألمعى وهبـه الله بصيرة شفافة .

* * *

٢ ــ أثر العبادات على الفرد

يقول الله تعالى فى كتابه العزيز : « **وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون** »[١] ..

فالعبادة من أهم أهداف خلق الانسان فى هذا الكون ؛ بل هى أهمها على الاطلاق ، وكما تشمل العبادة الفروض الواجبة على المسلم ، فهى تشمل أيضا كل عمل يقصد به وجه الله سبحانه وتعالى ، سواء أكان دعاء أو سلوكا مع الناس ، أو عملا يؤديه المسلم ، لخدمة نفسه ، وأهله وأسرته ، ومجتمعه ، وكذلك ما يخدم الانسان والانسانية جمعاء ، ذلك أن المقصود من العبادة هو تهذيب النفس وتقويمها ، ليصبح الانسان عضوا صالحا داخل المجتمع ككل ، لأنه اذا صلح الفرد ، صلح المجتمع كله .. ولهذا كان أثر العبادات راجعا أولا وآخرا الى الفرد ذاته .

فلو تدارسنا آثار الفروض الواجبة ، لتبين لنا أنها تدفع الفرد الى أن يكون خلقا سويا ، فمثلا . لو نظرنا الى الوضوء ، وهو ما فرضه الله سبحانه وتعالى ، كشرط أساسى من شروط الصــلاة فى قوله تعالى : « **يا أيها الذين آمنوا اذا قمتم الى الصلاة فاغسلوا وجوهكم وأيديكم الى المرافق وامسحوا برؤوسكم وأرجلكم الى الكعبين ، وان كنتم جنبا فاطهروا ، وان كنتم مرضى أو على سفر أو جاء أحد منكم من الغائط أو لامستم النساء فلم تجدوا ماء فتيمموا صعيدا طيبا فامسحوا بوجوهكم وأيديكم منه ، ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج ولكن يريد ليطهركم وليتم نعمته عليكم لعلكم تشكرون** »[٢] ..

فاذا حافظ المسلم على هذه الفريضة تعود على النظافة ، وهى من أهم العبادات التى تعود على المجتمع بالخير ، وتمنع عنه أضرارا كثيرة ، فالنظافة عنوان الجمال الذى يسر الناظرين ، فيبعث فى نفوسهم الراحة فتهدأ الأعصاب ، واذا هدأت الأعصاب ازدادت قوة الانســان على الانتاج .

---

(١) الذاريات : ٥٦ .

(٢) المــائدة : ٦ .

والنظافة مناعة من الأمراض التى تفتك بالانسانية ، وما أقسى الأمراض وأبغضها الى النفس ، ومعظمها لا يأتى الا من عدم النظافة ، فاذا فهم المسلم الحكمة من الوضوء وهى أنها للتطهر من الأوساخ ، والتحصن من المرض ، فأداه خير الأداء ، نال محبة الله ، وعاش سعيدا هنيئا .

كذلك الصلاة تصفى النفس ، وتريح الأعصاب ، وتغرس فى المسلم أن الخضوع لا يكون الا لله ، فلا يقع فريسة الاستعباد لانسان مثله ، ولا ضحيه الخوف من عبد لا يملك له ضرا ولا نفعا الا باذن الله . كما تعلم الصلاة أيضا : النظام ، والالتزام بالمواعيد ، فصلاة الجماعة تعود المسلم على النظام ، ولنتذكر قول الامام للمصلين : « سووا صفوفكم فان تسوية الصفوف من تمام الصلاة » ..

فهو درس يأخذه المسلم كل يوم ، ليكون على ذكر دائما بالتزام النظام .

وتوقيت الصلاة بأوقات محدودة يعود المسلم أيضا على الالتزام بالمواعيد ، ومعروف أن الالتزام بالمواعيد والنظام من أهم أسباب رقى الأمم والشعوب ، فاذا عرف المسلم هذا الهدف ، فسوف يكون من أحسن الناس اسهاما فى بناء الحضارات البشرية التى تعود عليه بالنفع العام .

أما الصيام فأثره على الفرد معروف ، فهو يهذب النفس ويصفى الروح ، ويذكر الناس بآلام الجوع ، حتى لا ينسى الغنى الفقير ، ولذلك أجاب أحد الحكماء عندما سئل عن السبب فى كثرة صومه بقوله : « أخاف أن أشبع فأنسى الجائع » ..

وفضلا عن هذا ، فهو علاج لأمراض العصر ، ذلك أن الناس ابتلوا فى هذه الأيام بأمراض ، ثبت أن سببها كثرة الأكل ، كالتخمة ، والكلوسترول ، وضغط الدم وغيرها .. فالصيام خير علاج لهذا كله وهو ما يعبرون عنه فى هذا العصر بـ « الرجيم » فقد أصبح هذا « الرجيم » موضة العصر ، وصار الناس ينظرون الى من يمارسه نظرة اكبار واحترام

لأنه صمم على تحرير نفسه من شهوة الأكل ، ولا شك أن الصيام فى الاسلام أفضل منه ، لأنه — فضلا عن كونه صحيا — فهو يذكر الانسان بألم الفقير الذى لا يجد ما يقتات به ، ويدفعه الى العطف عليه ، ومساعدته على التغلب على آلام الجوع ، وفى ذلك كل الفائدة لأنه يؤدى الى التعاطف والتراحم ، اللذين هما الأساس فى تماسك المجتمع وترابطه .

أما أثر الحج على وحدة الشعوب الاسلامية وتعاونها ، فأذكر كلمة قالها مؤلف كتاب « الاسلام قوة الغد العالمية » فى هذا الصدد ، فقد قال : « هنا فى مكة يجتمع المسلمون من كل أرجاء العالم مرة فى السنة أثناء الحج الأكبر ، يلتقون مع بعضهم ، بعد أن يطرحوا عنهم كل أثر أجنبى ، خارج المنطقة الحرام المضروبة حول مكة ، ينسون قومياتهم وأوطانهم ، ويتذكرون فقط حقيقة واحدة : أخوة فى الله ، تجمعهم عقيدة واحدة ، وكتاب واحد ، ليس للفوارق الاقليمية مكان بينهم ، وهم يد على من سواهم » ..

فمكة هى المحل الذى يشعل العاطفة الدينية فى المسلمين ، ويبعث فيهم روح تعاليم القرآن الكريم ، وهى مركز الاشعاع الروحى والفكرى ، حوله تحوم أفكارهم ، ثم تنبعث قوة محركة لكل الطاقات فى أرجاء العالم الاسلامى ، فتبعث الوعى والادراك بوحدة المصير فى هذا العالم الذى يعيش فيه أكثر من أربعمائة مليون مسلم .

* * *

٣ — خواطـــر صـــائم

(أ) فرض الله صيام شهر رمضان بقوله تعالى : « **شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان ، فمن شهد منكم الشهر فليصمه** »[1] ..

وهو شهر من شهور السنة القمرية ، وسميت قمرية لأن حسابها خاضع لمطالع القمر ومنازله ، والمعروف أن هذا التوقيت الزمنى غير ثابت ، أى أنه يتحرك على مدار السنة الشمسية . ويتم دورة كاملة فى حوالى ثلاث وثلاثين سنة تقريبا ، بمعنى أنه لو جاء رمضان فى يناير ، فسوف ينتقل بين الشهور الشمسية من سنة الى سنة ، حتى يتم دورة كاملة ؛ ويعود الى يناير بعد هذا العدد من السنين الشمسية ، وبناء عليه ، فرمضان غير ثابت فى زمن معين من السنة الشمسية ، فهو ينتقل بالتدريج من الصيف الى الربيع ثم الى الشتاء فالخريف .

● ولكن ما الحكمة فى ذلك ؟

— يرى بعض الباحثين أن الله سبحانه وتعالى ربط الصيام بالشهور القمرية ، لأن معرفة مطالع القمر سهلة ميسرة لكل الناس ، اذ أنها ترى بالعين المجردة ، فيستطيع كل واحد أن يرى القمر هلالا ، ثم بدرا ، فمحاقا ، ويحسب الشهور بناء على هذا التغيير بخلاف الشمس ، فلا يستطيع أحد ادراك مجراها بين الشمال والجنوب ، أو بمعنى أدق تحديد مسار مدار الأرض حولها ، الا بعد أن يصل الى درجة عالية فى مجال معرفة العلوم الفلكية ، وعليه ، فقد كان من الصعب تكليف الناس بصيام يربط زمنه بمظاهر فلكية لا يدركونها ، وخاصة أن الشـــهور الشمسية لم تكن معروفة عند سكان الجزيرة العربية التى نزل فيها الاســـــلام .

وهذا رأى غير سليم ويبدو عليه بساطة التفكير واضمحلاله ، وعدم فهم روح الاسلام وحقيقته ، ذلك أن الاسلام دين عالمى لكل الناس فى

---

(١) البقرة : ١٨٥ .

جميع أقطار الكرة الأرضية ، ومعلوم أن فصول السنة لا تتحد الا فى الأقطار الواقعة على خط عرض واحد ، بمعنى أن ما يقع على خطوط العرض فى نصف الكرة الشمالى ، يختلف عما يقع على خطوط العرض فى نصفها الجنوبى ؛ فاذا كان فى الشمال صيفا ، كان فى الجنوب شتاء ، واذا كان فى الجنوب شتاء كان فى الشمال صيفا ، وهذا معروف لمن عنده المـــام بسيط بعلم الجغرافيا ؛ ومشاهد لمن عنده اهتمامات ثقافية فى هذه الناحية ، اذ يعرف أن ذروة فصل الصيف فى جنوب القارة الافريقية ، يحل فى شهر يناير ، بينما هو ذروة فصل الشتاء فى أوروبا ، والعكس بالعكس ، ففى شهر يوليو يحل البرد والصقيع فى جنوب افريقيا ؛ بينما يتمتع الأوروبيون بالطقس الصيفى •

فلو فرضنا أن الصوم فرض فى شهر يوليو ، لظل سكان نصف الكرة الشمالى يصومون طول حياتهم صيفا ، وسكان النصف الجنوبى يصومون طول حياتهم شتاء •

وهذا أمر يتنافى مع عدل الله فى التكليف ، فاقتضت حكمة الله أن يتغير وقت شهر الصوم بين الفصول كلها ، ليؤدى الناس فى جميع مناطق الكرة الأرضية الصيام فى جميع فصول السنة ، بل ان الفرد الواحد سوف يصوم فى جميع هذه الفصول لأننا اذا عرفنا أن متوسط عمر الانسان يتراوح بين الخمسين والستين سنة تقريبا ، وتكليفه بالصوم يحين فى سن الخامسة عشرة ، فسوف يصوم رمضان فى كل شـــهور السنة لأن الدورة تتم فى ثلاث وثلاثين سنة تقريبا ، فاذا أضيف هذا العدد الى سن التكليف وهو خمس عشرة سنة لأصبح عمره ثمان وأربعين سنة وهو أدنى مجال متوسط عمر الانسان •

فالحكمة فى اختيار شهر قمرى للصوم ، هو لتحقيق العدل بين الناس فى التكليف ، أى كى لا يصوم سكان منطقة فى الصيف طوال حياتهم •• وسكان منطقة أخرى فى الشتاء طول حياتهم ••

* * *

(ب) اذا كان توقيت الصيام مربوطا بالقمر فمتى يبـــدأ الشهر ؟ هل يبدأ بظهور القمر هلالا ، أو عندما يكتمل بدرا ، أو عندما يصير محاقا ؟ وقبل أن نجيب على هذا السؤال ، نحب أن نلفت النظر الى أن الاسلام ربط توقيت أداء العبادات بظواهر فلكية واضحة ، حتى لا يختلف الناس فيها ، فاذا نظرنا الى أوقات الصلاة ، وجدناها تبدأ وتنتهى بظواهر واضحة للعين ، عبر عنها الحديث الذى رواه جابر بن عبد الله « أن النبى ﷺ جاءه جبريل عليه السلام فقال له : قم فصل ، فصلى الظهر حين زالت الشمس ، ثم جاءه العصر ، فقال : قم فصل ، فصلى العصر حين صار ظل كل شىء مثله ، ثم جاءه المغرب ، فقال : قم فصل ، فصلى المغرب حين غربت الشمس ، ثم جاءه العشاء ، فقال : قم فصل ، فصلى العشاء حين غاب الشفق ثم جاءه الفجر ، حين سطع الفجر فقال : قم فصل ، فصلى الفجر .

ثم جاءه من الغد للظهر فقال : قم فصل ، فصلى الظهر ، حين صار ظل كل شىء مثله ، ثم جاءه العصر ، فقال : قم فصل ، فصلى العصر حين صار ظل كل شىء مثليه ، ثم جاءه المغرب وقتا واحدا لم يزل عنه ، ثم جاءه العشاء حين ذهب نصف الليل ، فصلى العشاء ، ثم جاءه حين أسفر جدا فقال : قم فصل ، فصلى الفجر ثم قال له : ما بين هذين الوقتين ، هو وقت تأدية الصلاة » .

وبناء عليه ، فينبغى أن يكون وقت بدء الصوم وانتهائه واضحا ، ولا يتحقق هذا لو ربط باكتمال القمر بدرا ، أو بصيرورته محاقا ، لأن تقدير الاكتمال ، أو ادراك صيرورته محاقا ، يختلف — أحيانا — من شخص الى شخص ، لأن عنصر الكم يدخل فى هذا التقدير ، وهو محل خلاف ، أما رؤيته فى السماء بعد غروب الشمس لاحقا لها ، فلا خلاف فيه ، اذ مجرد الرؤية تؤذن بابتداء الشهر ، ولا يدخل فيها تقـــدير المســـاحة المضيئة فيه لثبات الرؤية ، ولذلك قال رســـول الله ﷺ : « صوموا لرؤيته ، وأفطروا لرؤيته ، فان غم عليكم فأكملوا عدة شعبان ثلاثين يوما » .

وتتم الرؤية بالعين المجردة ، ويجوز الاستعانة بوسائل علمية تساعد العين على الابصار ، كالمراصد ، ويكون ذلك فى مساء يوم التاسع والعشرين من شعبان ، فان رؤى الهلال ، وجب البدء فى الصوم فى اليوم التالى ، والا فعلى المسلمين أن يكملوا عدة شعبان ثلاثين يوما ، ثم يبدأ الصوم بعده .

وتثبت الرؤية ، ولو من واحد عدل ، لما ثبت أن ابن عمر رضى الله عنهما قال : تراءى الناس الهلال ، فأخبرت رسول الله ﷺ ، أنى رأيته ، فصام ، وأمر الناس بصيامه ، فهذا الحديث يدل على ثبوت الصوم بشهادة واحد فقط ، بشرط أن يكون عدلا .

قد يقول قائل : ان بعض الأقطار لا يظهر فيها القمر لشهور عديدة من السنة لأن السحب لا تنفك عنها ليلا ونهارا ، فكيف يعرف سكان هذه الأقطار موعد بدء الصوم ؟

وأرى أنه لا محل لهذا الاعتراض اذا عرفنا أن المسلمين فى جميع أقطار الأرض أمة تعيش تحت ظل الوحدة الدينية ، فشعارهم وحدة الألوهية ، ووحدة تأدية العبادات ، فاذا ظهر الهلال فى أى قطر من أقطار الأرض ، وجب على المسلمين فى جميع أنحاء الكرة الأرضية الصوم ، متى وصلهم خبر ثبوته ، بشرط أن يصلهم قبل طلوع الفجر ، ولا شك أن صفاء الجو من السحب متحقق دائما فى بعض مناطق الكرة الأرضية ، وعليه فلا مشكلة عند من يسيطر السحاب على أجوائهم لأنهم يصومون لثبوت الرؤية فى المناطق الخالية من السحب . وغضلا عن هذا ، فان علم الفلك قد تقدم اليوم وأصبح من السهل على علمائه أن يحددوا اليوم الذى يظهر فيه القمر بعد غروب الشمس ، ولا حرج من الاعتماد عليهم فى تحديد أوائل الشهور العربية ، لأن معنى الرؤية فى الحديث هى التثبت من ظهوره ، فاذا تثبتنا من هذا عن طريق الحساب الفلكى ، فيجوز الأخذ به وتحديد بدء الصوم تبعا له ، وبهذا يسقط أيضا الاعتراض السابق بأن السحب تمنع الرؤية .

* * *

(ج) يختلف الاسلام عن الأديان الأخرى فى مناح كثيرة ، بعضها يرجع الى العقائد والعبادات ، والبعض الآخر يتعلق بأسلوب حياة المؤمنين به ، ومدى تعاملهم مع ما حولهم من مظاهر الطبيعة ، بما فيها من صور شتى ، وأشكال متعددة ، وهيئات تجمع بين التنافر والانسجام ، وبين التباين والاندماج ، ولا شك أن كل دين تناول موضوع الكون بصورة أو بأخرى ، واشتملت تعاليمه على ذكر بعض جوانبه وما فيهـا من اعجاز أو تسلط على الانسـان يحمله على الخضوع للقوة التى يدعو اليها هـذا الدين ، ولكننا لا نجد دينا عنى بما فى السموات والأرض ودفع أتباعه الى النظر فيما حولهم من مظاهر كونية ، مثل الاسلام ، اذ نقرأ فى القرآن الكريم آيات كثيرة تحث المسـلمين على النظر والتأمل فيما يحيط بهم ، من سماء ، وأرض ، وكواكب سيارة ، ونجوم لا حصر لها ، مثل قوله تعالى : « **أو لم ينظروا فى ملكوت السموات والأرض وما خلق الله من شىء** »(٢) ..

وقوله : « **أفلم ينظروا الى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها وما لها من فروج . والأرض مددناها وألقينا فيها رواسى وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج . تبصرة وذكرى لكل عبد منيب** »(٣) ..

وقوله : « **خلق السموات بغير عمد ترونها ، وألقى فى الأرض رواسى أن تميد بكم وبث فيها من كل دابة ، وأنزلنا من السماء ماء فأنبتنا فيها من كل زوج كريم** »(٤) ..

الى غير ذلك من الآيات التى يضيق المقام عن ذكرها ، وكلها تحث بطريق مباشر أو غير مباشر على التفكير والتأمل فى ملكوت الله الذى يحيط بالانسان ، ولا يقف النظر والتأمل عند حد « البحلقة » فى مظاهر الكون ، بل هو محاولة الوصول الى معرفة أسبابها وادراك معالمها بالقدر المتاح للانسان ، ولم يقصر أمر الاسلام المسلمين بالنظر فيما حولهم على الناحية النظرية ، بل ربطها بالجانب العملى ، ذلك أن الله فرض

---

(٢) الأعراف : ١٨٥ .
(٣) سورة ق : ٦ — ٨ .
(٤) لقمان : ١٠ .

الصلاة والصيام فى أوقات محددة ، تتغير بمطالع الشمس والقمر ، ومعرفة هذه المطالع لا تكون سهلة ميسرة فى بعض مناطق الكرة الأرضية ، بمعنى أنها لا تعرف بمجرد النظر بالعين المجردة ، بل لابد من استعمال قواعد أخرى لتحديد بدء الصيام ونهايته ، وبدء وقت الصلاة ونهايته ، وهذا يدفع المسلمين الى الاشتغال بعلم الحساب والفلك ، وتلمس ذلك أيضا من قوله تعالى « **وجعلنا الليل والنهار آيتين ، فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة لتبتغوا فضلا من ربكم ولتعلموا عدد السنين والحساب** »(٥) ..

وقوله : « **هو الذى جعل الشمس ضياء والقمر نورا وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب** »(٦) ..

كذلك يتعذر فى بعض مناطق الكرة الأرضية تطبيق التحديد المشروع للصوم والصلاة لو أخذ بظاهره ، اذ كيف يصوم المؤمن من الفجر الى الليل فى بلد لا تغيب عنها الشمس شهرا أو شهرين ، وكيف يؤدى الصلاة فى يوم طوله ستة أشهر ، كما فى بعض المناطق القطبية ، الا اذا أدركنا أن تحديد وقت الصلاة بطلوع الشمس وغروبها ووقت الصوم بظهور الهلال ، مبنى على معظم مناطق الكرة الأرضية ، والمطلوب منا تقدير الزمن فى تلك المناطق التى تغيب فيها الشمس أو تشرق شهورا وأياما بحسب أقرب المناطق التى يتعاقب عليها الليل والنهار بصورة عادية ، كما أشار الى ذلك حديث الدجال ، حيث جاء فيه على لسان الصحابة رضى الله عنهم : « قلنا : يا رسول الله .. فذلك اليوم الذى كسنة أو تكفينا فيه صلاة يوم ؟ قال : لا .. اقدروا له » ففيه اشارة الى أنه لو حدث أن طال اليوم بصورة غير مألوفة فيجب علينا أن نقدر منه مقدار اليوم ، ونحدد على أساسه مواقيت الصوم والصلاة ، ولا يتأتى ذلك الا طبقا للقواعد الفلكية ، ولا يمكننا القيام بهـذا العمل الا اذا تقدم علماؤنا فى مجال الفلك ، وأصبحوا قادرين على حساب الزمن الذى تستغرقه الأرض فى دورانها حول نفسها وحول الشمس ، ومقدار قربها وبعدها من القمر .

---

(٥) الاسراء : ١٢ .

(٦) يونس : ٥ .

اذن فربط العبادتين بالظواهر الفلكية ، كان دافعا للعلماء الى البحث والتنقيب فى هذا العلم ، ووضع نظرياته على أسس علمية ، وهذا ما حدث فى الدولة الاسلامية ، اذ بعد ما كان الفلك قبل الاسلام قائما على التنجيم بأسلوب غير علمى ، اتجه فى العصر العباسى وما تلاه من العصور التى ظهرت فيها الاكتشافات العلمية الحديثة ، الى وضع النظريات العلمية فى هذا المجال ، فأنشئت المراصد المجهزة بأحدث الأجهزة للكشف فى العواصم الاسلامية وغيرها ، وتقدم علم الفلك تقدما ملحوظا ، فوضع العلماء قوانين هندسية مبرهنة للكشف عن مقادير الحركات الظاهرة للشمس والقمر وسائر الكواكب بالتحديد ، فكان هذا انجازا حضاريا على هذا الطريق ، وخطوة أولى شجعت الباحثين من مختلف الجنسيات على السير فى هذا الطريق ، حتى وصل اليوم الى درجة لم يكن من الممكن أن يتصورها الانسان فى الماضى ، فانجاز علماء الاسلام فى عالم الفلك يعتبر خطوة رائدة كانت العبادات الاسلامية من أهم الأسباب فى اتخاذها .

* * *

(د) تحتاج الأمم والشعوب فى مجال التربية والتعليم الى منهجين أساسيين ، يعتمد عليهما قادة الفكر فى تهذيب أبناء الأمة وتثقيفهم ، بحيث يصبحون عناصر صالحة لتكوين الطابع العام الذى تتميز به الأمة عن غيرها من أمم أهل الأرض .

وهذان المنهجان هما : المنهج الفردى ، والمنهج الجماعى ، ولكل أسلوبه الخاص وعناصره التى يتكون منها ، فعناصر المنهج الفردى ، تقوم أساسا على المعالم الرئيسية للنظام والمبادىء الأصلية له ، ويسلك الدعاة والمعلمون طرقا شتى فى تعليم الناس هذه المبادىء ، وتعويدهم على سلوك يتفق مع الطابع العام للهيكل التربوى الذى ارتضوه نظاما يحدد هويتهم ويحكم سلوكهم ، ويتحد مع عواطفهم ومشاعرهم .

ولا يحتاج نشاط الدعاة فى مجال تعليم الناس هذا الجانب ، الى التحكم فى المجال الاجتماعى ، أو السيطرة على الشئون السياسية ،

أو بسط النفوذ فى الدوائر الاقتصادية ، وغير ذلك مما هو داخل فى دائرة نفوذ الدولة ، أو القبيلة ، أو العشيرة ، بل يكفى أن يبدأ واحد ، فيعلم الناس فرادى ، بعيدا عن أعين رقباء أعداء هذا الفكر فلا يروه ، وان أحسوا به لا يدركوه ، لأنه لا يتبع أسلوب الاجتماعات العامة التى يسهل مراقبتها ، ولا يتحدى السلطة بمظاهرة ، أو بعقد مؤتمرات ، أو القيام بمهرجانات ، فهذا أسلوب لا يطبق الا اذا توافرت الظروف التى تساعد على عقد مثل هذه الاجتماعات ، ولذلك كان المنهج الاجتماعى تاليا للمنهج الفردى فى التطبيق ، اذ عندما يكثر المعتنقون للمبدأ ، ويزداد عدد المتعاطفين معه تخف حدة المعارضة وتضعف السلطة عن التصدى لأتباعه ومعتنقيه ، وعندئذ يعلن المبدأ عن نفسه عن طريق عقد المؤتمرات والاجتماعات العامة التى تكون وسيلة لجمع الأفراد لايقاظ الشعور بوحدة المصير فى نفوسهم ، وتنبيه العاطفة الى التجاذب على طريق التآخى والتآلف ، وبذلك يسير المنهجين جنبا الى جنب : أحدهما يعلم ويثقف ، ويغرس المبادىء فى قلوب الأفراد ، والآخر يجسد مظهرا لوحدة التآلف والتآخى بين أصحاب العقيدة الواحدة ، وهذا هو النظام الطبيعى لغرس أى مبدأ فى نفوس الناس ، بما فيها الدين •

فأى دين يقتصر على الناحية الفردية ، فهو دين انعزالى ، أى يعزل الفرد عن أخيه فى ممارسة الطقوس والعبادات ، فيقضى على الشعور بالانتماء الجماعى ، وهذا ضد طبيعة الانسان لأنه مدنى بالطبع ، أى يميل الى الاجتماع والمشاركة مع بنى جنسه ، ولو اقتصر دين أو مذهب على الجانب المظهرى ، أى الاجتماعات والمؤتمرات وأهمل تأهيل الفرد ليصبح مواطنا صالحا ، فانه يصير أقرب الى المظهرية الغوغائية منه ، الى الأسلوب التربوى المثمر •

والمعروف أن الاجتماعات ، منها ما هو ترفيهى ، وما هو تعليمى ثقافى ، فلو اقتصرت الاجتماعات الدينية على الجانب الترفيهى ، لانعدم العنصر الثقافى ، وقد ينحرف الجانب الترفيهى الى مزالق تؤدى الى نتائج سيئة ، ولو كانت الاجتماعات الدينية ذات صبغة ثقافية بحتة ،

فلربما يصيب الملل والضجر بعض الناس فينصرفون عنها ، ولذا كانت قيمة الدين ومدى صلاحيته للناس ودرجة فهم دعاته لطبيعة الانسان وخصائص المجتمعات من العوامل الأساسية التى تؤثر فى مدى تقبل الناس له ، وسرعة انتشاره بين الأمم ، وثباته أمام التيارات والعواصف التى تجتاح الأفكار والمبادىء من قلوب الناس ، وتطمس المذاهب والنحل فى عقولهم •

فلو نظرنا الى الاسلام فى ضوء ما بيناه لوجدناه دينا كاملا ، اتخذ طريقه بين الناس وفقا للقوانين البشرية ، والظواهر الاجتماعية ، لأنه ممن خلق البشر ، ويعلم سر الأفراد وخبايا المجتمعات ، أنزله الله على محمد ﷺ ، وأمره بتعليم الناس مبادىء الدين وأحكامه ، ولكنه لم يفرض عليهم فى مكة عبادة تتطلب الاجتماع فى مكان عام كصلاة الجمعة والعيدين ، لأن الظروف لم تكن قد هيئت بعد لعقد مثل هـذا الاجتماع ، ولم يكلفهم بعبادة تحتاج الى مظهر عام كالصيام ، لأن المجتمع لم يكن اسلاميا ، فكان من العسير بدء هـذه العبادة التى يميل الناس فى بداية ممارستها على الأقل الى الشـعور بأن من يعيش معـه فى المجتمـع مشارك له فيها ، فلا تقع عينيه على انسـان يتمتع بلذة الأكل والشرب بينما هو يجاهد نفسه على الصيام امتثالا لأمر الله ، ومن هنا فرض الله صيام شـهر رمضان فى السنة الثانية للهجرة ، لأن المجتمع الاسلامى برز الى الوجود بمعناه الكامل فى هـذه السنة ، فأصبح من فى المدينة ملزمين كلهم بالصيام ، فكمل بذلك المظهر العام لهذه الفريضة بخلاف الوضع فى مكة قبل الهجرة •

كذلك شرع الله صـلاة العيد فى السنة الأولى ، لكنه لم يخرج لتأديتها الا فى السنة الثانية ، فقد رووا فى أحداث هـذه السنة أن النبى ﷺ خرج الى المصلى فصلى بهم صلاة العيد ، وكان ذلك أول خرجة خرجها بالناس الى المصلى لصلاة العيد ، أضف الى هـذا أن الاجتماعات الاسـلامية فى شـهر رمضان وصلاة العيد هى للعبادة وسماع الموعظة ، وفى الوقت نفسه للترفيه ، اذ يوصى الاسلام المسلمين

بأن يرتدوا أجمل الثياب وأحسنها ، وأن يتزينوا بأنواع الزينة المختلفة ، كما جاء فى قوله تعالى : « **يا بنى آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد** »(٧) ..

وفضلا عن ذلك ، فهم يكبرون ويهللون ، ويتبادلون التهانى ، ولا يخلو ذلك من اضفاء طابع الترفيه البرىء على هذه الاجتماعات الدينية .

* * *

(هـ) اتفقت الأديان كلها على مبدأ واحد ، ألا وهو تكليف أتباعها بتأدية سلسلة من العبادات والطقوس للمعبود ، غير أن صور هذه الفرائض التى يكلف بها المؤمن تختلف من دين لآخر وان كانت تتفق فى الهدف ، لأن الهدف من وراء الزام الانسان بفريضة دينية ما ليس هو شكلها الظاهرى ، وانما ما توحى به تلك الفريضة لنفس الملتزم ، وما تغرسه من فضائل فى سلوكه مع ربه ، وازاء نفسه ، ومع من يعيشون معه فى المجتمع ، سواء أكانوا أقرباء فى الدم ، أو فى الجوار ، أو اخوانا فى العقيدة ، أو شركاء معه فى الحياة داخل تجمع بشرى معين .

لكن الاسلام اختلف عن الأديان كلها فى نظرته للحياة ، وفى تكليفه المسلم بتأدية عدد من العبادات ، كالصلاة ، والصوم ، والزكاة ، والحج ، فهذه كلها وان اتفقت فى الاسم مع الأديان الأخرى ، الا أنها تختلف اختلافا كليا عنها فى هيئتها أو شكلها ، فالصلاة فى الاسلام غير الصلاة فى الأديان الأخرى ، وكذلك الحال فى باقى الفرائض من صيام ، وزكاة ، وحج الى الأماكن المقدسة ، فاذا كان القرآن الكريم قد تحدث عن الصيام بأنه فرض على المسلمين كما فرض على الذين من قبلهم فى قوله تعالى : « **يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم** »(٨) ..

فليس الا من حيث فرضيته فقط ، لا من حيث هيئته وشكله ، فالصيام مفروض فى معظم الأديان ، ان لم يكن فى كلها ، غير أن زمنه وكيفيته ، تختلف من دين لآخر فهو وان كان يدور فى كل دين حول

---

(٧) الأعراف : ٣١ . (٨) البقرة : ١٨٣ .

الامتناع عن الأكل والشرب ومباشرة الحيـــاة الجنسية ، الا أن تحديد وقته ، وتعيين من يقوم به متفاوتا من دين لآخر ؛ ففى الأديان البدائية يفرض الصيام على من يريد الدخول فى الدين لمدة معينة ، وكذلك على من بلغ سنا يبيح له الاشتراك فى تأدية الطقوس الدينية •

وفى الأديان المتحضرة يصوم الانسان للعبادة ، أو كوسيلة للتخلص من أنانية الذات ، ففى الدين الجاينى يصوم الرهبان والراهبات لقتل الجانب المـــادى عندهم ، أى لاضعاف البدن و"لارتقاء بالروح ، وفى اليهودية يكون الصيام للتكفير عن السيئات وهو ما يسمى بيوم الغفران ، أو للحزن وهو يوم ذكرى هدم المعبد المقدس •

واعتمدت الكنيسة المسيحية فى فرض الصوم على ما جاء فى انجيل متى فى الاصحاح التاسع ، حيث قال عيسى عليه السلام لمن سألوه عن سبب صيام تلاميذه : « ولكن ستأتى أيام ، حين يرفع العريس عنهم ، فحينئذ يصومون »(٩) ••فصاموا بناء على هذا النص ٤٠ ساعة وهو الزمن الذى مكث به عيسى فى القبر ، حسب اعتقادهم ، ثم تغير وقت الصوم فيما بعد الى أربعين يوما ، قبل عيد الفصح ، واعتمدوا فى هـــذا على ما جاء فى الاصحاح الرابع من انجيل متى ، من أن عيسى عليه السلام صام أربعين نهارا وأربعين ليلة(١) ••

وفى الكنيسة الغربية القديمة ، كانوا يسمون يوم الجمعة والسبت من كل أسبوع بـــ « يومى التذكير » وفرضوا صيامهما ، وفى الكنيسة الشرقية القديمة ، كانوا يصومون يوم الأربعاء السابق على عيد الفصح ، لأنه يوم القبض على عيسى عليه السلام ، ويوم الجمعة التالى له ، لأنه يوم تنفيـــذ الحكم عليـــه ـــ حسب معتقدهم ـــ •

أما طريقة الصيام فاختلفت أيضا ، فهم يصومون فى بعض الأيام ، حتى منتصف النهـــار ، وبعضها يصومون فيها عن تناول اللحم فقط ، وصيامهم المسمى بالصيام الكبير يصومون أربعين يوما قبل عيد الفصح ،

---

(٩) متى (٩ / ١٥) • (١٠) متى (٤ / ٢) •

وصيامهم فيهـا هو الامتناع عن أكل الأطعمة المأخوذة من الحيوان ، كاللحم ، واللبن ، والسمن البلدى ، وما عدا ذلك فيأكلونه ، أى لا يمتنعون عن الأكل عما عداه ليلا أو نهارا ، كما أن الكنيسة الكاثوليكية تفرض الصيام من سن ٢١ حتى سن الستين .

هـذه صورة اجمالية لوضع الصيام فى بعض الأديان وفى الكنيسة المسيحية ، وهى تختلف كلية عن الصيام فى الاسلام ، فقد فرض الله علينا نحن المسلمين الصيام فى شهر رمضان أى الامتناع عن الأكل والشرب من الفجر الى غروب الشمس لقوله تعالى : « **وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر ، ثم أتموا الصيام الى الليل** »(١١) ..

ولم يحدد الصيام بسن معينة ، كما هو الحال فى الكنيسة الكاثوليكية ، بل هو مفروض من سن التكليف وهو خمس عشرة سنة حتى آخر العمر ، فالشيخ مفروض عليه الصيام ولو بلغ أرذل العمر مادام قادرا عليه ، ولا يسقط عنه الصوم الا عند العجز فيفطر ويطعم مسكينا عن كل يوم يفطره .

ومن هـذا يتبين أن صورة الصيام فى الاسلام فريدة لا يوجد مثلها فى أى دين آخر ، فهى تتفق مع طبيعة الانسان وأسلوب حياته ، فلا تحرمه من ملذات الحياة الا بضع ساعات فى اليوم لتدريبه على الصبر ، وتحمل المشاق ، فيزداد صلابة فى مواجهة مصائب الدهر ، ومتاعب الحياة ، وتلك هى أهم أهداف فرض الصيام على المؤمنين .

* * *

(و) يختلف الناس فى المشارب والرغبات ، وفى الميول والاتجاهات ، فقل أن يوجد اثنان متفقان فى نظرتهما للحياة ، أو فى طريقة سلوكهما داخل البيت وخارجه ، أو فى أسلوب نشاطهما فى المجال الاقتصادى أو الاجتماعى ، فالناس مذاهب شتى ، ورغبات متنافرة فى معظم الأحوال ،

---

(١١) البقرة : ١٨٧ .

وغرائز تتضارب وتتشابك مع بعضها ، وآمال تتصارع على مسرح أحداث الحياة ، ومن هنا كان لابد من وجود نظام ينسق بين هذا كله ، أو عقد اجتماعى يتفق عليه الجميع ، يحدد لكل مسارا لا يتعداه ، وهدفا لا يتجاوزه ، كى تسير الحياة فى مجراها سيرا طبيعيا ، لكن تختلف عوامل نجاح هذا العقد تبعا لاختلاف مصدره وسلامه بنائه لتحقيق الاستقرار والأمان للأمة التى ارتضته ، وقد أثبتت التجارب أن العقل البشرى عجز عن وضع قوانين سليمة لتنظيم المجتمعات ، بحيث لا تحمل فى طياتها سمات العصبية القبلية ، أو العرقية ، ولا معالم اقليمية ، ولا اتجاهات طائفية ، لأن هذه أمراض بشرية ، لا يمكن لأى فرد أو طائفة التخلص منها كلية .

أضف الى هذا ، أن القانون البشرى ليس له سلطان روحى على الناس ، فلا شىء يربطهم به سوى الخوف من العقوبة عندما ترصدهم عين الرقابة ، وكثيرا ما يتحاشونها ، فيفلتون من العقاب ، وعليه ، فان النظام الأمثل الذى يجمع شتات الناس تحت راية واحدة بعد أن يهذب طبائعهم المتنافرة ، ويكبح جماح نفوسهم الشاردة ، ويغرس فيهم حب الخير والعدل للجميع ، هو النظام الذى يجمع بين الكمال ورقابة ضمير كل فرد على تصرفاته ، ولا يتحقق ذلك ، الا فى الاسلام ، فقد حث فى آيات كثيرة من القرآن الكريم على التماسك بين أفراد الأمة ، ونهى عن الفرقة والتنازع ، فقال تعالى : « **واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا** »(١٢) ..

وقال « **ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم** »(١٣) ..

وقال رسول الله ﷺ مبينا للمؤمنين خطورة التفرق « انما يأكل الذئب من الغنم الشاردة » .. ولم تقتصر تعاليم الاسلام فى هذا الجانب على الوصايا القولية . بل شرع من العبادات العملية ما يغرس فى نفوس المسلمين الشعور بأنهم أمة واحدة ، ويثبت فى أفئدتهم أسس

---

(١٢) آل عمران : ١٠٣ . (١٣) الأنفال : ٤٦ .

التآلف ، والتعاطف ، والرحمة ، والمودة لاخوانهم فى العقيدة ، وشركائهم فى الدين ، ومن هـذه العبادات : الصيام ، ففى شـهر رمضان تبدو مظاهر الوحدة فى الأمة الاسلامية واضحة ، فهم يمتنعون عن الأكل فى زمن واحد ، ويفطرون فى زمن واحد ، مما يوحى اليهم بأن هدفهم واحد ، ومصيرهم واحد ، وتتجسد مظاهر هـذه الوحدة فى اشـتراك جميع طوائف الأمة الاسلامية فى الامتناع عن الأكل والشرب ، من طلوع الفجر حتى غروب الشمس ، لا فرق فى هـذا بين غنى وفقير ، ولا بين سيد ومسود ، ولا بين حاكم ومحكوم ، فهو واجب يشترك الجميع فى تأديته ، فالامتناع درجة واحدة يقف الجميع عليها جنبا الى جنب ، لا يفرق بينهم شىء على الاطلاق ، بخلاف الصوم عن أكل أنواع معينة من الطعام فى بعض الأديان الأخرى فلا تتحقق فيه الوحـدة لأن الأنواع الاخرى المسموح بأكلها تتفاوت فى درجاتها وجودتها ، فنرى الغنى يأكل صنفا أحسن مما يأكله الفقير .

أما الاسلام فقد أوجب المنع عن تناول أى شىء ، والجميع متساوون فى هـذا الامتناع ، وبهذا يعطى المؤمنين احساسا بأنهم متساوون ، فالغنى ممتنع عن الأكل ، والفقير أيضا مثله ، فهم سواء فى الامتناع ، أى أنهم يشعرون بالمسـاواة من طلوع الفجر الى غروب الشمس ، وهـذا وقت كاف لتذكيرهم بأنهم أمام الله سواء ، فاذا أدركوا هـذا تقاربت ميولهم ، واتحدت مشاربهم ، وشاع بينهم حب التعاون تحقيقا لقوله تعـالى : « **وتعاونوا على البر والتقوى ، ولا تعاونوا على الاثم والعـدوان** »(١٤) ..

فان تحقق هـذا ساد الأمن والاستقرار فى الأمة ، وهو أقصى ما تتمناه الأمة الرشيدة ..

* * *

(ز) يخضع سلوك الانسان للغرائز التى أودعها الله فيه ، وهى فى جملتها تشبه ما عند الحيوان من ناحية أنها مصدر للسلوك ، فغريزة بقاء

---

(١٤) المـائدة : ٢ .

النوع تدفعه الى سلوك طريق يرى أنه يشبعه جنسيا ، وغريزة الجوع تحمله على تحصيل الطعام ليسد به رمقه ، والشعور بالألم يدفعه الى التصدى لمصدره لأنه يرى أنه وسيلة للتخلص منه او أسلوبا لتجنبه ، وحب التملك يقوده الى السعى للحصول على أكبر قدر ممكن من الممتلكات ، وشغفه بالظهور والشهرة يوحى اليه بسلوك طرق مختلفة لتحقيق هذا الهدف ، وميله الى التفوق على غيره ، يحمله على التسلق فوق أكتاف الآخرين ، فاذا ترك للانسان الحرية فى اشباع غرائزه ، وتلبية احتياجاته الذاتية ، لأصبح سلوكه لا يختلف عن سلوك الحيوان ، اذ يصير هدفه هو الوصول الى أغراضه ، بصرف النظر عن ما يرتكبه فى سبيل ذلك من أخطاء فى حق الآخرين ، فلا يضيره سلب حقوقهم ، أو اغتصاب ما يملكون ، أو حرمانهم من ثمرة مجهودهم ، أو الحيلولة بينهم وبين حقهم الطبيعى كممارسة عملهم فى الموقع الذى وصلوا اليه بمجهودهم الشخصى ، وقدرتهم الذاتية .

ولذا كان لابد من قوانين ونظم لضبط السلوك وتهذيبه ، حتى لا يطغى أحد على الآخر ، ولا يغتصب الانسان حق أخيه الانسان ، لكن تطبيق القوانين ، والالتزام باللوائح ، لا يصبح عادة يعترف الجميع بها ، وينفذونها تلقائيا ، دون مشقة وعناء ، الا اذا تعود الانسان عليها من طفولته ، وتربى عليها فى نشأته ، والا أصبح من العسير عليه الالتزام بها ، والمحافظة على مراعاتها .

ومن أنجح الطريق فى تهذيب السلوك البشرى ، وتطويعه ، وانتزاع الجانب الحيوانى منه ، ما يكون الدين مصدره ، لأن له سلطانا على النفوس ، وتأثيرا على المشاعر ، ويحتل مكانا فى القلوب لا يصل اليه أى منهج تربوى مهما كانت قيمة المثل العليا التى يهدف الى تحقيقها ، وقد راعى الاسلام هذا الجانب فشرع من العبادات ما يهذب سلوك الانسان ويقومه ، فلم يفرض عليه شيئا ضد طبيعته ، وفى الوقت نفسه لم يترك وسيلة اشباع غرائزه للنصائح القولية التى تدعوه الى كبتها ، أو مراعاة حقوق الآخرين عند سلوك طرق اشباعها ، بل كلفه بعمل

تمرينات تصقلها وتخضعها لارادته الانسانية وتحررها من سلطان الجانب الحيوانى فيها ، وتجعلها تحت رقابة الجانب الروحى ، ففرض الصيام عليه ، لأنه من أنجح الوسائل لتدريب الانسان على تحمل المشاق ، وتطويعها للخضوع لتعاليم الاسلام ، وتهذيبها بحيث تنفذ أوامر الله ، دون ملل أو ضجر ، وتسير على أحكام الله دون مشقة أو عناء ، لأن من تنازل عن تناول الأكل والشرب من طلوع الفجر حتى غروب الشمس ، لا يتعذر عليه أن يصوم عما ليس له ، ويتنازل عن تحقيق رغبته اذا تعارضت مع حقوق الآخرين ، وترضى نفسه بالقليل المتاح له ولا تتطلع الى ما فى أيدى الناس مادامت ظروفها لا تعطيها حقا فيه ، وبذلك تهدأ النفوس وتتآخى وتعيش فى أمن واطمئنان ، يستوى فى ذلك الغنى والفقير ، ويأخذ الغنى درسا اضافيا من الصيام ، ألا وهو الشعور بالجوع ، ليتذكر ما يقاسيه الفقراء الذين لا يجدون ما يسدون به رمقهم ، فيدفعهم هذا الشعور الى الاحسان اليهم ، والى زيادة البذل والعطاء لتخفيف آلام المحتاجين .

فقد روى أن يوسف عليه السلام ، سئل عن سبب كثرة صيامه ، فأجاب : « أخاف أن أشبع فأنسى الجائع » ..

وعليه .. فالصيام ليس مجرد الامتناع عن الأكل والشرب ، وانما هو وسيلة لتدريب النفس على تحمل المشاق وتعويدها على مواجهة الصعاب واعدادها للصمود أمام ما يقابلها من أزمات ، فمن لم يقومه صيامه ، فليس له منه سوى الجوع العطش ، كما قال رسول الله ﷺ : « رب صائم ليس له من صيامه الا الجوع والعطش » فمن يعجز عن مواجهة الظروف التى تفرض عليه الحرمان ، فقد خرج من شهر الصيام بدون فائدة ، وتحضرنى الآن حادثة توضح هذا المعنى . فقد حدثنى أحد المسلمين أنه كان فى أحد البلاد الاسلامية التى تغلق فيها المحال لتأدية الصلاة ، وأثناء غلق المحل ، طلب من صاحبه اعطاءه كوبا من الماء ليطفىء به ظمأه ، فأبى صاحب المحل لأن وقت الصلاة قد حان ، فغضب من هذا التصرف ، وجاء الى شاكيا هذا التصرف

الغريب ، فقلت له : لو أفادك صيامك ، ما غضبت ، كيف تصوم عن الشراب يوما بأكمله فى رمضان ، وتعجز عن صيام ربع ساعة ؟ ألم يعدك صيامك لتتحمل مثل هذا الموقف ؟ فصمت قليلا ثم قال : لقد ذكرتنى بشىء كنت غافلا عنه ، يجب أن ننظر الى العبادات ونؤديها كما أرادها الله لنا ، تهذيبا وتقويما لأخلاقنا وسلوكنا ، واعدادا لمواجهة المواقف الصعبة .

* * *

obeikandl.com

٤ — ما يجب للميت

فضل الله الانسان على سائر المخلوقات كلها ، فخلقه على نحو يمكنه من تسخير ما فى الكون لخدمته ، ولهذا جاءت الرسالات السماوية متضمنة من الشرائع والأحكام ما يبرز هذا الجانب ويؤكده ، فأعلن الاسلام أن للانسان الحرية المطلقة فى اختيار ما يعتقد لأن المساس بهذا الجانب يعتبر اجبارا ، والمجبر ناقص الأهلية وتلك منقصة تحط من أفضلية الانسان على ما عداه من مخلوقات الله ، كذلك أوصى بالمحافظة على كل ما يتعلق بالانسان من نفس ومال ، فينبغى أن يعيش فى المجتمع آمنا مطمئنا حرا كريما ، يأخذ ما له من حقوق ، ويؤدى ما عليه من واجبات على نحو يحفظ عليه كرامته كانسان .

ولم يقتصر تكريم الانسان على زمن حياته ، بل امتد الى ما بعد موته فقد فرض الله على المسلمين القيام ببعض الواجبات ازاء الميت هى فى حد ذاتها تكريم له ، فان لم يقوموا بها وقع الاثم عليهم جميعا وهى ، أولا : غسله ، وهو كما يرى جمهور العلماء فرض كفاية ، اذا قام به البعض سقط عن جميع المكلفين ، ولا تسقط هذه الفريضة الا فى حق الشهيد ، لما روى أن رسول الله ﷺ قال: «لا تغسلوهم — أى الشهداء — فان كل جرح ، أو كل دم يفوح مسكا يوم القيامة » ، وأمر رسول الله ﷺ بدفن شهداء أحد فى دمائهم ، ولم يغسلوا ، ولم يصل عليهم ، وقيل فى حكمة ترك الصلاة عليهم : ان الصلاة على الميت ، والشهيد حى ، أو ان الصلاة شفاعة ، والشهداء فى غنى عنها لأنهم يشفعون لغيرهم .

وثانى الواجبات التى ينبغى أن يؤديها المسلم للميت : تكفينه بما يستره ، وهو فرض كفاية ، اذا قام به البعض سقط عن الباقين . وأقله ما يستر جميع بدن الميت ، سواء أكان ذكرا أو أنثى ، وما دون ذلك لا يسقط به فرض الكفاية عن المسلمين ، ويجب تكفين الميت من ماله الخاص الذى لم يتعلق به حق الغير كالمرهون ، فان لم يكن له مال خاص فكفنه على من تلزمه نفقته فى حال حياته . ولو كان الميت زوجة وتركت مالا فيجب

على الزوج القادر تكفينها من ماله الخاص ، فان لم يكن لمن تلزمه نفقته مال كفن من بيت المـــال ان كان للمسلمين بيت مال وأمكن الأخذ منه ، والا فعلى جماعة المسلمين القادرين كفنه • والحكم فى بقية تجهيزات الميت مثل الحكم فى الكفن •

وذكر العلمـــاء أنه يستحب فى الكفن ما يأتى :

أولا : أن يكون حسنا نظيفا ســـاترا للبدن ، لمـــا روى أن النبى ﷺ قال : « اذا ولى أحدكم أخاه ، فليحسن كفنه » •

ثانيا : أن يكون أبيض ، لمـــا روى عن ابن عباس أن النبى ﷺ قال : «البسوا من ثيابكم البيض ، فانها خير ثيابكم وكفنوا فيها موتاكم» •

ثالثا : أن يجمر ـــ أى يبخر ـــ ويطيب ، لمـــا روى أن النبى ﷺ قال : « اذا أجمرتم الميت ، فأجمروه ثلاثا » •• وأوصى ابن عباس أن تجمر أكفان الميت بالعود •

رابعا : أن يكون ثلاث لفائف للرجل ، وخمس لفائف للمرأة ، لمـــا رواه الجماعة عن عائشـــة قالت : كفن رسول الله ﷺ فى ثلاثة أثواب بيض ، ليس فيها قميص ولا عمامة ، وعن أم عطية ، أن النبى ﷺ ناولها ازارا ، وقميصا ، وخمارا ، وثوبين •

أما الأمر الثالث ، الذى يجب على المسلمين القيام به للميت : فهو الصلاة عليـــه ، وهى فرض كفاية على الأحياء ، فاذا قام بها البعض ، ولو واحدا ، سقطت عن الباقين فلا يكلفون بهـــا ولكن ينفرد بثوابها من قام بها منهم ، لما روى عن أبى هريرة أن النبى ﷺ قال : « من تبع جنازة ، وصلى عليهـــا ، فله قيراط ، ومن تبعها حتى يفرغ منها ، فله قيراطان ، أصغرهما مثل أحد ـــ أو أحدهما مثل أحد » •• وروى مسلم عن خباب رضى الله عنه قال : يا عبد الله بن عمر •• ألا تسمع ما يقول أبو هريرة ؟ انه سمع رســـول الله ﷺ يقول : « من خرج مع جنازة من بيتها ، وصلى عليهـــا ، ثم تبعها حتى تدفن . كان له قيراطان من الأجر ، كلّ قيراط مثل أحد ، ومن صلى عليهـــا ، ثم رجع كان له مثل

أحـــد ، فأرسل ابن عمر رضى الله عنهما خباباً الى عائشـــة يسألها عن قول أبى هريرة ، ثم يرجع اليه فيخبره بما قالت • فقال : قالت عائشـــة : صدق أبو هريرة ، فقال ابن عمر رضى الله عنهما : لقد فرطنا فى قراريط كثيرة •

ولصلاة الجنازة أركان تتكون منها حقيقتها ، فلو ترك منها ركن بطلت ، فلا يعتد بها شرعا ، وأول هذه الأركان :

النية ، وصفتها أن ينوى الصلاة على هـــذا الميت ، أو هؤلاء الموتى ان كانوا جماعة •

وثانيها : القيـــام للقادر ، فلا تصح الصـــلاة على الميت راكبا أو قاعدا من غير عذر ، ويستحب أن يقبض بيمينه على شـــماله ، أثناء القيام ، كما يفعل فى الصلاة •

وثالثها : التكبيرات ، وهى أربع بتكبيرة الاحرام •

ورابعها : قراءة الفاتحة بعد التكبيرة الأولى سرا •

وخامسها : الصلاة على النبى ﷺ بعد التكبيرة الثالثة ، وأفضل صيغتها أن يقول المصلى : « اللهم صل على محمد ، وعلى آل محمد ، كما صليت على ابراهيم ، وعلى آل ابراهيم ، وبارك على محمد ، وعلى آل محمد كما باركت على ابراهيم ، وعلى آل ابراهيم فى العالمين ، انك حميد مجيد » •

وسادسها : الدعاء بعد التكبيرة الثالثة ، وقد ورت صيغ كثيرة ، نذكر منها ما روى عن عوف بن مالك أنه قال : سمعت رســـول الله ﷺ — وقد صلى على جنازة — يقول : « اللهم اغفر له وارحمه ، واعف عنه وعافه ، وأكرم نزله ، ووسع مدخله ، واغسله بماء وثلج وبرد ، ونقه من الخطايا كما ينقى الثوب الأبيض من الدنس ، وأبدله دارا خيرا من داره وأهلا خيرا من أهله ، وزوجا خيرا من زوجه ، وقه فتنة القبر وعذابه » •

وسابعها : أن يقول بعد التكبيرة الرابعة : « اللهم لا تحرمنا أجره ،

ولا تفتنا بعده واغفر لنا وله ، ربنا آتنا فى الدنيا حسنة ، وفى الآخرة حسنة ، وقنا عذاب النار » .. ثم يسلم .

وبعد انتهاء الصلاة على الميت ، نكون قد وصلنا الى آخر مراحل ما يجب علينا ازاءه ، ولم يبق سوى دفنه ، ومن السنة فى ادخال الميت القبر ، أن يدخل من مؤخرة اذا تيسر ، فان لم يتيسر ، فكيفما أمكن ، ويستحب أن يوضع الميت فى قبره على جنبه الأيمن ووجهه تجاه القبلة ، ويقول واضعه : بسم الله ، وعلى ملة رسول الله ، كما يستحب أن يحثو من شهد الدفن ثلاث حثيات بيديه على القبر من جهة رأس الميت ، ويقول فى الأولى : « **منها خلقناكم** »[1] .. وفى الثانية : « **وفيها نعيدكم** »[1] وفى الثالثة : « **ومنها نخرجكم تارة أخرى** »[1] .. كذلك يستحب الاستغفار له عند الفراغ من دفنه ، لما روى أن رسول الله ﷺ كان اذا فرغ من دفن الميت يقول : « اللهم هذا عبدك نزل بك ، وأنت خير منزل به ، فاغفر له ووسع مدخله » .

فوجوب غسل الميت وتكفينه ، والصلاة عليه ودفنه يعتبر تكريما للانسان بعد مماته ، اذ أن طهارته ، والدعاء له ، وستر عورته رمز لوفاء المجتمع الاسلامى له ، وتقدير لانسانيته ، وعامل يساعد على غرس المعانى النبيلة فى نفوس الأحياء ، كى يحافظوا على كرامة الانسان حيا وميتا ، فلا يقترفون أعمالا تحط من انسانية اخوانهم ، أو تسىء اليهم نفسيا ، أو جسمانيا . وتلك غاية ينشدها المخلصون للمجتمع البشرى .

* * *

---

(١) طه : ٥٥